المشرق

المئة الثالثة لوفاة يسوعيَّين جليلَين

القديس يوحنا بركمانس والمكرم الكردينال بلرمين

للاب لويس شيخو اليسوعي

يقول الروح القدس في الاسفار المقدَّسة ان ذكر الصدّيقين يثبت على طول الزمان وها نحن نجد مصداقاً على صحة هذا القول في تذكار المئة الثالثة لرجلَين من عبيد الله توفيا بمثل هذه السنة في رومية العظمى لم يكد يفصل بين موتهما الصالح شهر واحد زيد بهما شاباً بلجيكيًّا مرآة البرارة انتقل الى جوار ربّه في عزّ شبابه يُدعى يوحنا بركمانس وشيخاً كبيراً زيَّن كنيسة الله مدَّة ثمانين سنة بجمع فضله وسعة علومه وقداسة حياته يعرفهُ الشرق والغرب معاً المكرَّم الكردينال بلرمينس الايطالي. فانَّ بلجيكة وايطالية يتباريان في اكرام هذين الرجلين العظيمين اللذين شرَّفا ذينك القطرين في مدَّة حياتهما كما سترى وماتا جنباً لجنب في عاصمة الكثلكة بعد ان التمس الشاب بركة الشيخ الجليل وشهد الشيخ على برارة الشاب وسامي فضله

١ القديس يوحنا بركمانس

هو الزنبقةُ اليقق التي ابهج بهاؤها نظر السماء والوردةُ العطرة التي سرَّت الكنيسة بأريجها والمحرقةُ التي تنسَّم الله رائحتها الذكيَّة بالرضى. قال احد الفلاسفة انَّهُ لا يعرف على الارض مشهداً اجمل واشهى من نظر شابٍ عاش باراً ومات باراً دون ان يدنّس ثوبهُ بجأة الخطيئة. ويوحنا بركمانس في مقدَّمة الذين يستحقُّون هذا الثناء الطيب كما تثبتهُ شهادة الوفر من الشهود العيان الذين صحبوهُ في كلّ ادوار حياته

ابناء الصالح

كان مولد يوحنا بركمانس في ١٣ آذار سنة ١٥٩٩ في مدينة صغيرة من اقليم برابنت من اعمال بلجيكة تدعى ديست ليست بعيداً من حاضرة لوفان . وكان والداه اغنى بالخيرات الروحيَّة منهما بغنى العالم فلم يألوا جهداً في تربية ابنهما وكان بكر اخوته الخمسة الذين اشتهر منهم ادريان فبشَّر بالايمان في جزائر الفيليپين في رهبانية الاوغسطينيين ثمَّ شرل الذي خلف اخاهُ في الرهبانيَّة اليسوعيَّة ثمَّ سيُّهُ يوحنا الذي اقترن بالزواج وبعد وفاة قرينته دخل في مصاف الكهنوت وصار قانونيًّا على كنيسة مدينته سان سولبيس التي كان خدمها سابقاً كوافه

ففي هذه التربة نبتت تلك الغرسة المختارة فنمت وترعرعت مشمولة بنظر السماء والارض فلم يكد الولد يبلغ سنَّ الرشاد حتَّى اظهر من الفضائل ما لم يُعهَد في امثاله من تُقى ووداعة وصبر على الاوجاع وإكرام للوالدين حتَّى قيل فيه كما قيل في سيِّه القديس يوحنا المعمدان : «ما عسى ان يكون هذا الصبيّ»

وكان مع حداثة سنه ينهض باكرًا من الفراش فيسرع الى الكنيسة ليخدم هناك قدَّاسين او ثلاثة قدَّاسات بكل ورع وتقوى . وثبت على عادته هذه الحميدة حتَّى في ايَّام دروسه قبل ذهابه الى المدرسة . وكان اذا وجد في نهاره فراغاً من الشغل بادر الى مناجاة الله في الصلاة وهو يجد فيها من العذوبة والسلوان ما يصغِّر في عينه الالعاب واللاهي الصبيانيَّة

باشر يوحنا الدرس في السنة السابعة من عمره وانكبَّ عليه بتنهى الرغبة والنشاط . وكان الله انعم عليه بذهن ثاقب وفؤاد ذكي فما لبث ان فاق على اقرانه واضحى لهم قدوةً في طلب العلم كما كان مثالهم في الفضيلة

ولمَّا بلغ العاشرة من عمره شعر في باطنه بدعوة الله الى العيشة الاكليريكيَّة فاستعدَّ لها بدرس اللغة اللاتينيَّة ومبادئ العلوم . واذ رأى انَّ والديه لا يستطيعان القيام بنفقة دروسه دخل بيت احد الرهبان المدعو بطرس إمريك الذي كان جمع في داره بعض الفتية النجباء ليُعنى بتهذيبهم ويخرِّجهم على الآداب الكهنوتيَّة . فانضمَّ

يوحنـاً اليهم ليخدمهم ويكتسب بخدمتهم معاشهُ ويواصـل بصحبتهم دروسهُ الاكليريكيَّة

فما مرَّ على الاب اَمريك بضعة ايَّام حتَّى عرف اَيَّة درَّةٍ ثمينة ربحهـا فلم يعتبر يوحنَّا كخادم بل كملاك يمرضهُ على فتيتهِ ليتشبَّهوا بهِ في حركاتهِ وسكناتهِ . فكان هو صباح مساء ساعياً في كل حاجاتهم لم يدع واحداً منهم يأخذ عليهِ خللاً في خدمتهِ بل كان يسبق رغائبهم ويؤدي لهم خدماً اختياريَّة لم يكن مضطرًّا اليها

ومن العجب العجاب انَّ هذه الاشغـال لم تَثْنهُ عن النجاح في دروسهِ ولا عن اتمام رياضاتهِ الروحيَّة . فكان اذا فرغ من خدمتهِ اسرع الى كتابه او جثا راكعـاً امام صورة تقويَّة للبتول العذراء مريم التي رضع مع الحليب عبادتها وكرَّس نفسهُ لها في مزارٍ قريب يُدعى مونتاغو كان يتردد اليهِ لاكرامها . واذ حظي في تلك الاثناء بالتقرُّب لاوَّل مرَّة من المـائدة الالهيَّة زادهُ القربان الاقدس حرارةً حتَّى خيل لرفقتهِ انهُ احد الارواح السماويَّة المتقمصة بجسم بشريّ

بقي يوحنَّا ثلث سنين في خدمة الاب اَمريك وتـلامذتهِ ومع كونهِ لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمرهِ كان نبغ في دروسهِ الثـانويَّة وهو يستعدّ لختامهـا بالدروس البيانيَّة والخطابيَّة . بيد انهُ في غضون ذلك قد جرت لهُ محنٌ كادت تقطع آمالـهُ من دعوتهِ الاكليريكيَّة فانَّ والدتهُ أُصيبت بمرض مزمن وشعر ابوهُ بعجزهِ عن القيام بأود عائلتهِ فاستدعى ابنهُ يوحنَّا وعرض عليهِ احوال بيتهِ وطلب منهُ ان يساعدهُ في مهنتهِ

فكان كلام والدهِ هذا كصـاعقةٍ انقضَّتْ عليهِ فخرَّ على اقدامهِ بازاء فراش اوجاع والدتهِ واجهش باكياً ثمَّ استحلف والديهِ بألَّا يصدَّاهُ عن اتباع صوت الله الذي يدعوهُ الى الكهنوت وبقي كـذلك جاثياً مذرفاً للدموع السخينة حتَّى اثَّر كآبهُ في قلب والديهِ التقيَّين فخـافا ان يقاوما مشيئة الله واطلقـا لهُ الحرِّيَّة لاتمام دروسهِ على شرط ان يسعى بنفسهِ بامر معاشهِ

الَّا انَّ الله لم يهمل يوحنَّا واذ كان صيت براعتهِ قـد انتشر في وطنهِ أَلهم كاهنين فاضلين بأن يسعفاهُ في مواصلة دروسهِ في بلدتهِ اوَّلاً ثمَّ في مدينة مالين احدى حواضر بلجيكة حيث استخدم للقانونيّ فرولمون كما خدم الكاهن اَمريك وتمكَّن

حضور المدارس المنشأة هناك وكان حيثما يمرّ يحرز لهُ محبّة الجميع بمناقبهِ الفريدة
ذا فارقهم اسفوا على فقدانهِ اسفهم على فراق اعزّ الخلّان . ولثقة القانوني فروامون
انتدبهُ الى نظارة ثلثة اولاد من اسرة شريفة كانوا في عهدتهِ فتولّى الامر بغيرتهِ
هودة حتّى اصبحوا بتدبيرهِ وحكمتهِ اطوع اليهِ من بنانهِ فحبّب اليهم الفضيلة والعلم
هِ اكثر منهُ بأقوالهِ وزرع في قلوبهم بذار البرّ والطهارة كما كانوا يقرّون بذلك
بقيّة حياتهم

وبينما كان القديس بركانس منكبًّا على هذه الاعمال لم يكن ليهمل دروسهُ
كليريكيّة بل كان يتفرّغ لها في ساعات الليل واطراف النهار . وحدث في غضون
ك انّ الرهبانيّة اليسوعيّة تلبيةً الى دعوة بلديّة مالين فتحت في هذه المدينة مدرسةً
نيف الناشئة فيها وكان ذلك سنة ١٦١٥ . فتقاطر الشبّان اليها ليستقوا من مناهلها
دبة . ورغب يوحنّا بركانس ان يحضر ايضاً دروسها البيانيّة والخطابيّة فعزّ الامر
معلّميهِ السابقين لئلّا يفقدوا تلميذًا كاملًا مثلهُ فتصدّوا لهُ برهةً لكنّ القديس
ت على عزمهِ واخذ يتردّد الى المدرسة الجديدة وهو باقٍ في خدمة القانوني فروامون
قضى يوحنّا سنةً ونصف في مدرسة الآباء اليسوعيين ختم فيها الآداب اللاتينيّة
لّم اليونانيّة واصاب في كلتا اللغتين قصب السبق على اقرانهِ . لكنهُ وجد فيها
ائل جديدة لنموّ عبادتهِ وتقديس نفسهِ بفضل مرشديهِ كالتأمّل اليومي وفحص
سير . ومن ذلك ايضاً انهُ انضوى الى اخويّة العذراء المنشأة للطلبة فكان من
س اعضائها ولم يكتفِ بالفرائض المعتادة لاكرابها بل كان يصوم السبت وفي
موقات اعيادها لينال شفاعتها

وكان يوحنّا لم يفكّر قبلًا الّا بالدعوة الكهنوتيّة الّا انهُ لمّا عرف الآباء اليسوعيين
ى عياناً فضائلهم شُغف حبًّا برهبانيّتهم وسمع صوت الله يدعوهُ الى عيشة
كمال في طغمتهم على انّهُ لم يشأ ان يتسرّع في امرهِ فعمد الى الاستحرار بالصلاة
وطلب مشورة ابيهِ الروحيّ والفحص المتكرّر عن دعوتهِ حتّى لم يبقَ لهُ ريبٌ في
يئة الله . ومذ ذاك الحين نوى ان يقطع كل علاقة مع العالم مهما وجدهُ في طريقهِ
العوائق ولاسيّما من قبل والدهِ الذي توسّل بكل الوسائل ليردّ ابنهُ عن قصدهِ .
كنّ القديس برسائلهِ وكلامهِ اثبت لهُ بالادلّة الواضحة انّها هي ارادة الله فلا يجوز

للانسان ان يحول دونها. فاراد ابوهُ ان يختبر دعوتهُ على يد بعض الاصحاب من رهبان وغيرهم فما عاينوا ابنهُ قليلاً حتى وافقوهُ على عزمهِ واقرُّوا بصحَّة دعوتهِ واقنعوا اباهُ بتخلية سبيلهِ

الراهب الكامل

ما نال يوحنَّا الاذن من والدهِ باتِّباع دعوتهِ حتَّى بادر الى دير ابتداء اليسوعيين في مالين دون ان يذهب الى بلدتهِ ليودِّع اقاربهُ لئلَّا يلقى موانع جديدة تعترضهُ في سبيل دعوتهِ. وكان اوَّل ما فاه بهِ عند دخولهِ الدير: « لقد كسرتَ يا ربِّ اغلالي فانِّي اقدِّم لك ذبيحة الشكر ». والحقّ يقال ان يوحنَّا مذ وضع يدهُ على المحراث لم يلتفت الى الوراء بل اخذ على نفسهِ ان يسير الى ذروة الكمال. واذ رأى ساعة دخولهِ احد الاخوة المساعدين يشتغل بحراثة الجنينة تناول المحول من يدهِ وجعل يكرب الارض ليفتتح حياتهُ الرهبانيَّة ببعض اعمال التواضع

وجد برُكمانس يوم دخولهِ دير الابتداء في ٢٤ ايلول ١٦١٦ سبعين شاباً من ابناء وطنهِ جحدوا مثلهُ العالم والباطلهُ وطلبوا خدمة الله في الرهبانيَّة وكان بينهم الادباء والشرفاء والعلماء وذوو الخصال الفريدة والمناصب العالية فما انتظم في سلكهم حتَّى عدَّ نفسهُ كالاخير بينهم وكخادمهم اماَّ هم فما لبثوا ان اعتبروهُ كملاك مرسل من الله ليكون بينهم كمثال حيّ للكمال الرهبانيّ

وكان اوَّل ما باشر بهِ في ابتداء حياتهِ الرهبانيَّة انهُ تعمَّق في درس قوانين القديس اغناطيوس لئلَّا يفوتهُ في حفظها شيءٌ مهما كان طفيفاً فسار بموجبها ولم يحدْ عنها ذرَّةً حتَّى قيل عنهُ انَّهُ احيا تلك القوانين في سلوكهِ ولو ضاعت يوماً لوجدوها في شخصهِ وكلّ سيرتهِ. وقد سعى رفقتهُ في ان يراقبوهُ لعلَّهم يرون في تصرُّفهِ ولو نقصاً خفيفاً او هفوةً زهيدةً فخاب مسعاهم واقرُّوا ليوحنَّا بتمام الكمال

اماَّ القديس فكان على خلاف ذلك يزيد تواضعاً ويلتمس من مرشديهِ أن يتشدَّدوا عليهِ ويوبِّخوهُ على نقائصهِ ويفرضوا عليهِ الاعمال المذلَّة الشاقَّة وقد اختار بين الفضائل الرهبانيَّة تلك التي تزيدهُ تجرُّداً من نفسهِ وتقرُّباً من الله ولاسيَّما الطاعة وهي من مميِّزات الرهبانيَّة اليسوعيَّة فانَّهُ كان يمارسها بكل دقَّة نحو كلّ من كان

لهُ عليهِ بعض السلطة حتى من المتدنين مثلهِ فكان يتمم اوامرهم كأنها من الله لا يفرق بين الاوامر السهلة او الشاقة . وكان تواضعهُ يدفعهُ الى مزاولة الاعمال الدنيئة ككناسة الدار وتمريض المرضى وخدمة المساكين

وكذلك الفقر الرهباني فان يوحنَّا بركمانس كان يختار لنفسهِ احقر الألبسة ويكتفي بما يرضى بهِ الفقراء المدقعون من مطعم ومشرب بل يزيد على ذلك ما يسوّاهُ لهُ روح التقشُّف والاماتة الاختياريَّة حتَّى اضطرَّ الرؤساء الى ان يردعوهُ عن افراطهِ في ذلك خوفاً على صحَّتهِ

وفي مدَّة الابتداء أطلق خصوصاً العنان لعبادتهِ لاسيَّما نحو القربان الاقدس ونحو البتول الطاهرة جعلها كمحور حياتهِ الروحيَّة . فكان يزور في نهارهُ متواتراً ابن الله سجين هياكلنا ليحيا بهِ ويضرم قلبهُ بحبهِ ولا يذهب الى النوم الَّا بعد تقدمة رقادهِ للاله الساهر في قربانهِ ليلاً مع نهار لينوب عن البشر في اكرام ابيهِ السماويّ . امَّا البتول فكان مشغوفاً بحبها ساعياً في اكرامها ومجتهداً في نشر عبادتها . ومما يُخبر عنهُ انَّهُ كتب بدمهِ صكًّا وقيَّد نفسهُ بالنذر ان يدافع عن عقيدة حبل العذراء بلا دنس الخطيئة الاصليَّة التي لم تُعلن بها الكنيسة الَّا في اواسط القرن الماضي فاستحقَّ بذلك ان تشملهُ ملكة السماء بأسبغ نعمها

وكان بركمانس معَ اجتهادهِ في تحصيل الفضائل ونفورهِ من كلّ الشهوات العالميَّة دمث الاخلاق ليّن العريكة سهل المعاملة باسم الثغر يخدم الله بفرح وسعة قلب ويجتذب قلوب رفقتهِ الى الله فيهتفون عند نظرهِ : « ما ألذّ وما اشهى ان يسكن الاخوة معاً »

قضى بركمانس سنتين في دير الابتداء في مالين احرز في مدتهما جميع الفضائل الرهبانيَّة وختمها بابراز النذور الثلثة المعتادة اي الفقر والعفَّة والطاعة مرتبطاً لبقيَّة عمرهِ بطريقة ابناء القديس اغناطيوس

ما انتهى يوحنَّا من محن الابتداء حتَّى انتدبهُ رؤساؤهُ الى درس الفلسفة فارسلوه الى رومية العظمى حيث كانت نخبة شبَّان الرهبانيَّة اليسوعيَّة على مقربةٍ من الكرسي الرسوليّ ومن رئيسهم العامّ . وكانوا تقدَّموا اليهِ قبل سفره ان يودّع اهلهُ فكتب الى ابيهِ يعلمهُ بالامر الَّا ان الله كان استدعى والدهُ الى دار البقاء قبل ذلك باسبوع .

فلمّا وقف على الامر رفع الى الله الادعية لراحة نفسه ثم سعى جهده في تعزية والدتهِ واخوتهِ واهتمّ طاقتهُ بمستقبل اخوته الصغار موصياً بهم الاقارب والاصحاب وخصوصاً القانوني فروامون وليّ نعمتهِ

قدوة المدارسين

كانت الاسفار في ذلك العصر طويلة شاقّة معرّضة لعدّة اخطار فتجشّم القديس هذا السفر بأمر الطاعة مع رفيقٍ آخر يشبههُ بصلاحهِ وتقاهُ فقطعا طريقهما بشهرين ونيف وكانا حيثما يحلّان يستلفتان نظر من يراهما بحشمتهما وحسن سلوكهما . وكان وصولهما الى رومية في آخر يوم من السنة ١٦١٨ في شدّة الزمهرير وكان السفر انهك قواهما حتّى ان رفيق يوحنّا لم يلبث ان أصيب بداء عُضال فتوفّي بعد قليل

أمّا القديس فانّهُ منذ اوّل ايام قدومهِ استوقف نظر رئيس الرهبنة العام الاب موشيوس ڤيتلسكي وبقيّة الآباء حتى هتف احدهم : « انّ بلجكة قد انعمت علينا بملاكٍ محض » وقال غيرهُ : « كنّا نفتقد لويس غونزاغا فها قد احياهُ الله في شخص هذا الشابّ »

كانت المدرسة الرومانيّة حيث دخل يوحنّا بركانس من اعظم مدارس الرهبانيّة اليسوعيّة يتخرّج فيها نحو مئتين من الرهبان الواردين اليها من كل اصقاع اوربّة يدرسون فيها العلوم الدينيّة العليا اعني الفلسفة واللاهوت وتفسير الكتاب المقدس والحقّ القانوني وكان لمعلّميها شهرة ذائعة في كل الانحاء بطول باعهم وكثرة تآليفهم كفى بذكر بعض من شرفوا اذ ذاك تلك المدرسة كالكردينال بلرمنيوس والكردينال دي لوغو والاب قرنيليوس الحجريّ وغيرهم كثيرين . وكان رئيس المدرسة الاب ڤرجيل سيپاري رئيس لويس غونزاغا سابقاً وكاتب ترجمته كما صار رئيساً على بركانس ونشر ايضاً ترجمة حياتهِ وهو اصدق المؤرخين

واوّل ما أثّر في بركانس عند وصولهِ الى رومية نعمةُ وجودهِ في عاصمة الكثلكة ومركز الايمان المستقيم تُحدق بهِ من كل جهة مآثر الدين الجليلة كالكنائس الفخيمة ومقامات القديسين الشهيرة وقبور الشهداء مع قربهِ من نائب المسيح وخليفة هامة الرسل فزادتهُ تلك الآثار عبادةً وأنهضت بعواطفهِ الى عالم البقاء

واذ كان تذكار لويس غونزاغا حيًّا بين رفقته الدارسين وقبره في كنيسة المدرسة قصد يوحنا ان يتَّخذهُ كشفيعهِ الخاص ويقتدي بكل امثالهِ وقد شهد من عاش معهُ انهُ اشبههُ الشبه التامّ وقال الواحد منهم: « لم أَعُد اقرأ ترجمة لويس لأَنّي ارى فضائله حيَّةً في سيرة يوحنا » وما لا يُنكر انهُ لم يدع من قانون الرهبنة والمدرسة صغيرًا او كبيرًا الَّا انجزه بكل تدقيق اذ يرى فيهِ مشيئة الله

وما سبق لنا ذكرهُ من فضائلهِ في دير الابتداء في مالين قد ثبت عليهِ في رومية او بالحري قد نمى وازداد كثيرًا ولولا ضيق المكان لروينا لهُ في كلّ فضيلة آثارًا عجيبة تنبئ بعظم براءتهِ وذلك على سواء في كل اطوار حياتهِ في امورهِ الروحية او في سلوكه مع رؤسائهِ وفي تصرُّفهِ مع اخوتهِ الرهبان. فكان مع ربّهِ خشوعاً ورعاً ومع رؤسائهِ بسيطاً سليم النيَّة ولاوامرهم مذعناً ومع رفقتهِ كلًّا للكلّ وديعاً لطيف المعاشرة مستعدًّا لخدمتهم في كلّ الحاجات مهما كلَّفهُ ذلك من المشاق

واذ كان الدرس اهمّ اشغالهِ انكبَّ عليهِ بكلّ قواهُ ليكون العلم في يدهِ وسيلةً لخدمة الدين. فكنت تراهُ يُصغي بكل حرص الى تعاليم معلّميهِ في الفلسفة والرياضيَّات ثم يعود اليها في انفرادهِ ليدرك كلّ مشاكلها واذا اعتاص عليهِ شيء منها عرضهُ على معلّميه واستمدّ من الله ادراكهُ بالصلاة ثمّ يدوّن خلاصة تلك التعاليم في دفاترهِ ويردّدها في ذهنهِ ثمّ يتباحث فيها مع اقرانهِ حتَّى انَّ كثيرين منهم كانوا يقصدونهُ في صعوباتهم فيحلّها لهم حلًّا مرضياً. واذ رآهُ الرؤساء في ختام الفلسفة قديرًا على مدافعة كل قضاياها امام جماهير المعلمين والتلامذة اوعزوا اليهِ بان يستعدَّ لهذا الامتحان في حفلة يحضرها وجوه رومية وعلماؤها فقام بهذه المهمَّة احسن قيام حتَّى اثنى على سعة علمهِ كلّ الحضور مع اطرائهم حشمتهُ وتواضعهُ في اجوبتهِ

حبّ الابرار

على انَّ اجتهادهُ العظيم لهذه الحفلة الحافلة ليحقّق آمال معلّميهِ فيهِ أَثَّر في صحَّتهِ تأثيرًا مؤلماً ولاسيَّما انَّ ذلك وقع ابَّان الصيف الذي تفتك في فصلهِ الامراض في اهل رومية وعلى الاخصّ في الغرباء

ففي الشهر الاوَّل من شهر آب شعر يوحنا بوعك في صحَّتهِ فلقيهُ رئيسهُ في

طريقه ووجده ممتقع اللون عليل القوى فامره ان يذهب الى مستشفى الدير ليُري نفسهُ للاخ وكيل المرضى. فذهب ممتثلاً . فما عتَّم الاخ بعد فحص جسمهِ ان وجدهُ مصاباً بداء الرئة فقلق لذلك والزمهُ الفراش . فأحسَّ القديس باضطراب الوكيل فطمَّنهُ بقولهِ : « مهما حدث فاننا في يد الله ابينا فلتكن مشيئتهُ » ولمَّا اعلمهُ الاخ بعد مدَّة بخطر الموت ضمَّهُ الى صدرهِ شاكرًا لهُ على هذه البشرى

ثمَّ انتشر بعد ساعة خبر مرض برنكانس بين الرهبان اخوتهِ حتَّى عمَّهم الحزن كأنهم أُصيبوا باعظم المصاب وتباروا في الصلاة والدعاء الى الله ليحفظ لهم تلك الحياة العزيزة . لكنَّهُ تعالى وجد تلك الثمرة ناضجة لجنَّتهِ فآثر ان يقطفها وينقلها الى دار الخلود

سطا الداء على برنكانس مدَّة خمسة ايَّام كان فيها مثال الصبر الجميل والطاعة للممرِّضين والوداعة نحو كلّ من يعودهُ وهو لا يذكر اوجاعهُ الَّا كنعمة من الله معلناً بفرحهِ ان يموت في عنفوان شبابهِ كسلفهِ لويس غونزاغا وكان كلّ كلامهِ عن السماء وامور الابديَّة . ولولا امر رئيسهِ لكان اقتبل الاسرار الاخيرة جاثياً على الحضيض في هيئة التوَّابين والخطأة وطلب من الجميع السماح عمَّا فرط منهُ في حقهم فأجابتهُ دموع اخوتهِ لدى سماعهم هذا الكلام المشعر بتواضعهِ . وكان يعدُّ حياتهُ كلا شيء ويتوسَّل الى الاطبَّاء ان لا يُنفقوا عليهِ مال الرهبنة ويلتمس من اخوتهِ ان يكفُّوا عن طلب شفائهِ ليذهب ويتمتَّع برؤيهِ

وقد نمى خبر مرضهِ الى بعض اعيان رومية من ارباب الدين وغيرهم فأتوا ليعودوهُ ويطلبوا دعاءهُ وكانوا اذا خرجوا يصرخون : حقًّا هذا احد اولياء الله

ثمَّ تفاقم الداء دون ان يفقد القديس شيئاً من رشادهِ بل كان يزداد رغبةً الى مواجهة إلههِ وكان آخر ما فاه به اسم يسوع ومريم ولمَّا بلغ الحضور الى دعاء طلبة العذراء « يا عذراء العذراء يا امَّا طاهرة » اسلم الروح بكل هدوء وسكينة وتطايرت نفسهُ الى الاخدار السماويَّة . كأنَّهُ بلسان حالهِ يردِّد قول النبيّ : « ما اجمل الجيل العفيف الطاهر فانَّ ذكرهُ يبقى خالدًا » وكان ذلك في ١٣ من شهر آب سنة ١٦٢١ وهو في الثامنة والعشرين من عمرهِ

هذا هو البارّ القديس الذي تحتفل بلاد بلجيكة وطنهُ مع الرهبانيَّة اليسوعيَّة بالمئة

الثالثة لوفاته . فانَّ الله اراد ان يمجّده بعد موته بعدَّة معجزات باهرة بيَّنت ما لهُ عندهُ تعالى من الكرامة . فالكنيسة اذ بلغها خبر تلك الآيات اقامت لجنةً خاصَّة للبحث عن فضائل يوحنا بركانس السامية وعن العجائب التي جرت بشفاعته فلما تبيَّنتها ادرجت اسمهُ اوَّلاً سنة ١٨٦٥ في عداد الطوباويين على عهد بيوس التاسع ثمَّ بعد معجزات جديدة تحقَّقها ديوان المجمع المقدَّس نظمه السعيد الذكر البابا لاون الثالث عشر سنة ١٨٨٨ في سلك القديسين فعُدَّ احد انوار المئة الثالثة التي سطعت ضياؤها في الرهبانية اليسوعيَّة في رومية اي ثلثة من شبَّانها الكرام الاجلَّاء استانسلاوس كوستكا البولوني ولويس غونزاغا الايطالي ويوحنَّا بركانس البلجكيّ الذين لا تزال حياتهم تبعث في الناشئة المسيحيَّة روح التقى والبرارة

٢ المكرَّم الكردينال بلرمينوس

قد اعتبرنا الشاب الصالح الذي احبَّهُ يسوع لحفظه كلّ وصاياهُ ومشوراته (مرقس ١٠ : ٢١) فلنوجّه نظرنا الى الشيخ الجليل الذي شبع من الايام ولم يحدّ طول عمره عن سنَن الفضيلة والكمال . نريد بهِ المكرَّم الكردينال بلرمينوس سراج الكنيسة النير الذي جمع بوجب وصيَّة المسيح بين العلم والعمل فاستحقَّ ان يدعى بذلك عظيماً في ملكوت السماوات

عبقريّة بلرمينوس

ولد الكردينال بلرمينوس في مدينة مُنتيلْشيانو من اعمال توسكانة في ايطالية في ٤ تشرين الاوَّل ١٥٤٢ يوم عيد القديس فرنسيس الاسيزي فدعي في المعموديَّة روبرتوس فرنسيس رومولس . وكانت اسرتهُ عريقة في الشرف واعرق في الفضيلة والبرّ ولاسيَّما امُّهُ شقيقة الحبر الاعظم مرسيل الثاني التي لم تدَّخر وسعاً في تربيته المسيحيَّة . وكأنَّ الولد قبل باوغه سنّ الرشاد ادرك نوايا والدته فكان في يدها كالشمع الرخص الليّن يسير فرحاً على كلّ تعاليمها الصالحة . وكان اوَّل ثمرة ذهنه الثاقب خطبةً صغيرة قالها في آلام المسيح امام والدته واخوته ثم اردفها بقصيدة لطيفة في مديح البتولية اندهش الكلّ لحسنها . وكان روبرتوس ذا صوت رخيم فاذا دعاهُ احد الى الغناء رسم على جبهته إشارة الصليب وغنّى الاغاني التقويّة ليس الّا وكان

يقول: «معاذ الله ان استعمل صوتي لغير خدمته تعالى ومديح الفضيلة»

كان الآباء اليسوعيّون فتحوا حديثاً مدرسةً في وطن بلرمينوس فألحّ على اهله ان يكون من تلامذتهم فما انتظم في سلكهم حتّى ظهر فضلهُ على جميع اقرانهِ بل كان شرفاً لمعلّميهِ. ومما يُروى عنهُ انّهُ سمع يوماً احد الاعيان يُحقّر تعليم اليسوعيين فقام للحال وذهب الى عمدة المدينة وطلب منهم ان يعيّنوا لجنةً تفحصهُ هو وبقيّة الدارسين في المدينة ليروا فضل معلّميه فاجابوا الى ملتمسهِ فخرج ظافراً من هذا الامتحان وافحم الثالبين

ثمّ عُقدت حفلة ادبيّة في المدرسة وعرض الدارسون مثالاً من انشائهم فقوبل خطاب بلرمينوس بالتصفيق الحادّ وطلبوا منهُ ان يعيدهُ لبلاغتهِ

وكانت شبيبة الاشراف في البلدة قد فتحت ناديا يتردّد اليهِ أدباؤها فارسلوا الى روبرتوس يدعونهُ ليخطب فيهم مع حداثة سنّهِ فابى اوّلاً ثمّ كرّروا عليهِ الدعوة الى ان اقنعوهُ فتألّبوا لاستماعهِ قائلين: «هلموا بنا نسمع عظة الملاك روبرتوس» فلم يخب ظنّهم فيهِ وكان لكلامهِ احسن وقع في قلوبهم

الراهب والمعلم

كان ابو روبرتوس يعلّق على ابنهِ آمالاً بعيدة لاسيما في المناصب الدينيّة. غير انّ روبرتوس لم يشأ ان يُذعن لصوت اللحم والدم بل اراد ان يفحص دعوتهُ امام الله ويضحّي لها كلّ اعتبار بشري فانفرد اياماً بالخلوة وتأمل الحقائق الابديّة في رياضات القديس اغناطيوس فعلم دون مراء انّ الله يدعوهُ الى الرهبانيّة اليسوعيّة. فقام بينهُ وبين ابيهِ نزاع طويل كان لهُ فيهِ الظفر بمساعدة خالهِ اسكندر سرتين شقيق البابا مرسيل الثاني فقرأ الوداع لاهلهِ وسار الى رومية طالباً من الاب جاك لينيس خلف القديس اغناطيوس في الرئاسة العامّة على الرهبانيّة اليسوعيّة ان يقبلهُ بين رهبانهِ وكان بلغهُ ما لروبرتوس من الصفات الجليلة فقبلهُ دون تريّث وعافاهُ بامتياز خصوصي نادر جدًّا عن امتحانات الابتداء وامرهُ بدرس الفلسفة

وكان بلرمينوس ضعيف المزاج عليل الصحّة فزادتهُ دروسهُ انحرافاً الّا انّ جودة قريحتهِ وحصافة عقلهِ مكّنتاهُ من ادراك كلّ غوامض الفلسفة حتّى دُعي الى

المدافعة عن كلّ تعاليمها بحضرة جمهور الاساتذة والطلبة فأجمع كل الحضور على بُعد شأوهِ في كلّ فروع النظريّات (١

ففي إثر هذه الحفلة ارسلهُ الرؤساء الى مدينة الفنون الجميلة فيرنسة ليدرّس فيها الآداب اللاتينيّة . فلبّى دعوة رؤسائهِ وهو يشعر بانحطاط قواهُ لا يعلم كيف يقوم بهمّتهِ هذه الصعبة لكنّهُ انطرح عند اقدام السيّد المسيح في قربانهِ الاقدس وطلب منهُ بحرارة وثقة الصحّة والعافية ليخدمهُ كما يليق في الرهبانيّة ويتمّم اوامر رؤسائهِ . فقام معافًى بالصحّة التامّة ومذ ذاك الحين الى آخر حياتهِ لم يعد يشعر بضعف في جسمهِ ولم يتمّم فقط تلك السنة وظيفتهُ بل اضاف اليها عدّة اشغال كالمواعظ والارشادات ونظم القصائد . وفي السنة التالية علّم الخطابة في مدرسة أخرى وتكلّف باعباء مختلفة مدّة ثلث سنوات دون ان تصاب صحّتهُ بأذًى . وكان في خطبهِ اوّلًا يُعنى كثيرًا بالفصاحة وترويق العبارات لكنهُ في بعض الايّام دُعي الى الخطابة بغتةً فقضي عليهِ الارتجال فلحظ انّ كلامهُ زاد تأثيرًا في النفوس لسذاجتهِ فلم يَعُد بعد ذلك الى التأنق في الخطاب وانّما كان يستقي افكارهُ من مورد العبادة ومناجاة الله ثمّ يلقي الكلام عفوًا فيأتي بالثمر المرغوب

وفي تلك الاثناء قام القديس فرنسيس بورجيا بعد وفاة الاب لينس رئيساً عامًّا على الرهبانيّة اليسوعيّة فارسل بلرمينوس الى مدينة كاپوا ليدرّس اللاهوت فقضى هناك سنتين فقط فأتقن تلك الدروس التي لم يُحكمها غيرهُ الّا في اربع سنوات وقدّم عنها فحصاً علنيًّا عموميًّا في كنيسة جنوة الكاتدرائيّة أعجب بهِ كل من حضرهُ . وكان في درسهِ لا يطلب الّا وجه الله فيتّخذ العلم كوسيلة الى معرفة خالقهِ وزيادة حبّهِ لهُ

فلمّا عرف القديس فرنسيس بورجيا ما نالهُ بلرمينوس من الشهرة في جنوة اراد ان يرسلهُ الى مدينة لوڤان عاصمة بلجيكة ليجعلهُ فيها كسدّ بازاء سيل البروتستانيّة الزحاف الذي اندفع الى تلك الجهات . فذهب بارمينوس وهو لم يزل شمّاسًا بسيطًا . فعند وصولهِ عُهد اليهِ الوعظ في كنيسة المدرسة . فلمّا رآهُ الجمهور متأهّباً للخطابة

(١) وكان بين معلّمي بلرمينوس الاب يوحنّا الپانو علّمهُ العبرانيّة وهو الذي أرسل سفيرًا الى الموارنة في لبنان كما رويناه ذلك في المشرق سنة ١٩٣٠

وهو في مقتبل الشباب لا يزينهُ الاكليل الاكليريكي والدرع الكهنوتي اخذهم العجب وكادوا يزدرون بكلامهِ ومن ثمَّ اسرع الرؤساء وامروهُ ان يستعدَّ للرتبة الكهنوتيَّة فتمَّ ذلك فعلًا في السنة ١٥٧٠ ثمَّ عاد الى ارشاد المؤمنين فاقبل السامعون اليه بكل رغبة حتَّى ضاقت بهم الكنيسة واذ اتَّخذ كموضوع خطبهِ تفنيد الاضاليل البروتستانيَّة ذاع صيتهُ في كلّ انحاء بلجكة بل بلغ خبرهُ الى هولندة وانكلترَّة حتَّى ان كثيرين من اهلهما كانوا يأتون الى لوڤان ليسمعوا خطبهُ الدينيَّة فردَّ البعضَ منهم الى حجر الكنيسة

وكان بلرمينوس مع مواعظهِ في الكنائس يعلِّم ايضاً اللاهوت النظريَّ في كليَّة لوڤان فيدهش الجميع بعارضتهِ وقوَّة براهينهِ وسعة مداركهِ . الَّا ان تقواهُ وقداسة حياتهِ كانا يحيكان في القلوب اكثر من علمهِ . وقد وُجد في مفكِّراته انهُ كان يلتجئ في امورهِ الروحيَّة الى قلب يسوع الاقدس . فسبق بتعبُّدهِ نحوهُ عهدَ وحي الرب بهذه العبادة الى القديسة مرغريتا مريم

بقي بلرمينوس سبع سنوات في لوڤان وكان بلغ مسامع البابا غريغوريوس الثالث عشر ما قالهُ هناك من المجد الاثيل بردِّهِ غارات البروتستانت فامر الرئيس العام بان يستدعيهُ الى رومية ليتولَّى في المدرسة الرومانيَّة علم الجدال لنقض اضاليل ذلك العصر فأجاب بلرمينوس مسرعاً الى ما امرهُ بهِ رئيسهُ الَّا انَّ اهل بلجكة عذَّروا فراقهُ كمصاب عظيم لوطنهم فودَّعوهُ والقلوب آسفةٌ على فقد مثله كنزاً ثميناً

كان سفر بلرمينوس كثير الاخطار والبروتستانت يرصدونهُ في طريقه فأبدل ثيابهُ بثياب العاليين واخذ لنفسهِ احد اسمائهِ الثلثة فسمَّى ذاتهُ السيد رومولوس ثمَّ سافر برفقة بعض البروتستانت الذين لم يعرفوهُ فكانوا يُسرُّون بأُنسهِ وآدابهِ ولمَّا وصل الى جَنوة عاد الى لبسهِ الكهنوتيَّ فتعجَّب رفقتهُ من تغييرهِ زيَّهُ وقالوا: ما كنَّا لنظنَّ ان يسوعيًّا يبلغ الى هذا الحدّ من اللطف والوانة

جلس بلرمينوس على كرسيّ تعليم المجادلات في المدرسة الرومانيَّة اثنتي عشرة سنة (١٥٧٧—١٥٨٩) فكان يتناظر اليه اشراف رومية وارباب الاكليروس ليسمعوا تعاليمهُ وطلبوا كلهم منهُ ان ينقل تلك التعاليم للطبع فنُشرت بمجلَّدين ضخمين وراجت في انحاء اوربَّة اي رواج ونُقلت الى معظم اللغات الاوربيَّة . واجمع العلماء

على انها كانت ضربةً لازبة على المراطقة اللوتزانيين والكلوينيين والانغليكان . وممَّن شهد على فضل مجادلات بلرمينوس القديس فرنسيس دي سال فانهُ كان في رسالته بين المراطقة لا يأخذ معهُ الا ثلثة كتب كتاب صلاته والكتاب المقدَّس ومجادلات بلرمينوس ويقول : مع هذه الاسلحة الثلثة لا اخاف عدوًّا . وكان تاودورس دي بيز احد كبار زعماء البروتستانت يقول : ان مجادلات بلرمينوس قد أتلفتنا . وتقدَّمت اليصابات ملكة الانكليز الى علماء شيعتها بان يردُّوا على تلك المجادلات فلم يستطيعوا فامرت بإعدام كلّ من يُدخل منها نسخة في انكلترَّة لئلَّا يرتدّ اهلها الى دين اجدادهم . لكن اوامرها زادت رغبة الناس في مطالعتها وفقاً للمثل انَّ كلّ ممنوع متبوع حتَّى انَّ احد باعة الكتب في انكلترَّة كان يقول انَّ مجادلات بلرمينوس اغنتهُ اكثر من بقيَّة كتبهِ المبيعة . وخلاصة القول انَّ مجادلات بلرمينوس أوقفت تيَّار البدع البروتستانيَّة وفتحت ايضاً اعين كثيرين من الضالّين فارتدُّوا عن ضلالهم وكتبوا الى مؤلفها شاكرين لهُ على ما اوضح لهم من انوار الحقّ

ولمَّا كانت السنة ١٥٨٩ صارت امور فرنسة الى حالة سيئة بعد وفاة هنريكس الثالث وتحامل البروتستانت على الدولة حتَّى خيف من انقلاب بنت الكنيسة البكر وتحوُّلها الى المذهب البروتستاني فاراد البابا سكستوس الخامس خلف غريغوريوس الثالث عشر ان يتلافى هذا الخطر العظيم فارسل الكردينال غايتاني كقاصد رسولي ليسعى في تدبير الامور ثمَّ انتدب الاب بلرمينوس ليرافقهُ بصفة لاهوتيّ في المجادلات مع البروتستانت ونشرَ وقتئذٍ براءةً ممهَّمة اظهر فيها محبَّتهُ لفرنسة ورغبتهُ في رقيّها

ولنا في تاريخ هذه السفارة عدَّة شواهد على ما ادَّاهُ بلرمينوس في باريس من الخدم لكنيسة فرنسة بمناهضة البدع البروتستانيَّة وجَمع كلمة الكاثوليك من جملتها رسالة جليلةٌ وجَّهها الى كلّ اساقفة الدولة وسطَّر لهم واجباتهم لخلاص دولتهم فكان لكلامهِ صدى استحسان في كلّ القلوب وكان من اقوى الاسباب لكبح سورة البروتستانت ولردّ هنريكوس الرابع الى دين الملوك آبائهِ

ثمَّ عاد بلرمينوس في السنة التالية الى رومية فوكل اليه الرئيس العام الاب اكواڤيڤا مهنة مرشد روحيّ للمدرسة الرومانيَّة التي كانت تتربَّى فيها زهرة الرهبانيَّة اليسوعيَّة الواردين اليها من كل اصقاع اوربَّة ومنها خرج عدد لا يُحصى من عظام

الرجال فتولّى بلرمينوس إرشادهم في كلّ الآداب الرهبانيّة وأعدّهم طـاقةً جهدهِ الى ما ينتظرهم يوماً من اعمال رهبانيّتهم ومشاريعها المختلفة . وكفى فخراً بلرمينوس انّ بين الرهبان الموكولين الى عنايتهِ كان لويس غونزاغا قدوة الشبّان المتوفّى بين ذراعيهِ ووطنيُّنا الحلبي ابراهيم برجس الماروني شهيد الرهبانيّة اليسوعيّة في مصوّع

ومن الوظـائف المهمّة التي قام بها بعد ذلـك بلرمينوس رئاستهُ على المدرسة الرومانيّة السابق ذكرها مدّة سنتين (١٥٩٢—١٥٩٤) ثم رئاسة اقليم نابولي (١٥٩٤—١٥٩٧) كان في كلتاهما مثال الحكمة والعزم والمحبّة في كلّ اموره حتّى انّ الجميع كانوا يودّون لو يتولّى تدبيرهم فيرون فيهِ قدوة الرؤساء كما وصفهم القديس اغناطيوس في قوانينهِ لا يسير في كلّ اعمالهِ الّا بموجب الخير العمومي ومجد الله الاعظم . وفي تلك الاثناء توفّي الكردينال توله (Cl Tolet) اليسوعي فاحتاج البابا اقليمس الثامن الى لاهوتي حاذق في كلّ العلوم الدينيّة فاشار اليهِ الكردينال بارونيوس بتقليد هذه الرتبة الاب بلرمينوس

الكردينال

كان احد الاسباب التي دفعت بلرمينوس الى الدخول في الرهبانيّة اليسوعيّة انّ ابناءها ينذرون الفرار من المناصب الاكليريكيّة كالرتبة الاسقفيّة وشرف الكردينالية والطمع بكل رئاسة . غير انّ احكام الله ربّما خالفت احكام البشر وهذا ما جرى لبلرمينوس فانّ ابتعادهُ من هذه المناصب الجليلة اضحى سبباً لتقليده اياها

وذلك انّ البابا اقليمس الثامن منذ اوقفهُ الكردينـال بارونيوس على فضل بلرمينوس فكّر في ترقيتهِ الى رتبة الكردينالية لئلّا يبقى ذاك السراج تحت المكيال . لكنّ بلرمينوس كان يمانعهُ على قدر استطاعتهِ ومثلهُ رئيس الرهبانيّة العام بموجب قوانين الرهبنة لكنّ الحبر الاعظم في آخر الامر حكم الحكم الفصل وفرض عليهِ بأمر الطاعة وتحت الخطأ الثقيل بان يقبل منصب الكردينالية فأذعن الى مشيئة الله مرغوماً وكان ذلك سنة ١٥٩٩ ولمّا أعلن البابا بعزمهِ امام المجمع الكردينالي قال : « انّنا قد خوّلنا الاب بلرمينوس منصب الكردينالية لانهُ فريد وحدهِ في كنيسة الله من حيث العلم ولانهُ ابن اخت ذلك الحبر الروماني الجزيل الشرف والسامي القداسة مرسيل الثاني »

دخل بلرمينوس في مصاف الكرادلة لكنهُ لم يغير شيئاً في بساطة سلوكهِ وشظافة عيشهِ وانما كان يردّد لمن يهنئهِ بمنصبه الجديد كلام الكتاب المقدس عن ناعمة في سفر راعوث: « لا تدعوني نُعمي بل ادعوني مُرَّة » مشيراً الى هنائهِ في الرهبنة وعنائهِ خارجاً عنها وكان يطلب بالحاح من اخوتهِ الرهبان ان يصلّوا لاجلهِ لينجو من اخطار تلك الوظيفة ومسئوليتها امام الله

ومن ثمَّ قصد ان يتمّم كلّ واجباتهِ دون مراعاة الاشخاص ويعيش مرتدياً بالارجوان عيشة اخوتهِ اليسوعيين في الفقر الاختياري والتواضع . اما رواتب المعاش التي عيّنها لهُ الحبر الاعظم فما كان ينفق منها الّا القليل لحاجات دارهِ وكان الكثير الباقي يصرفهُ كلّهُ على الفقراء والمحتاجين . والى كرمهِ هذا وعلمهِ معاً اشار الله بعد وفاتهِ اذ ظهر بلرمينوس لاحد الابرار برونق المجد وعلى جانبيهِ ملاكان في يد الواحد كتاب مفتوح وفي يد الآخر كيس دراهم صدقاتهِ التي بسببها دُعي أبا الفقراء

خدم بلرمينوس الكرسيّ الرسوليّ خدماً جليلة منذ وقف حياتهُ لهذه الدعوة بصفة كردينال فكان يباشر اعمال الكرادلة بهمّة لا تعرف الملل وكان اذا استشارهُ الحبر الاعظم في بعض المهامّ عرض فكرهُ بصدق وصراحة لا يأخذهُ في ذلك لومة لائم . وقد ظهرت نزاهتهُ هذه في عدّة امور لاسيّما في تحرير المكرَّم الفرنساوي الاب جان دلا بَرْيار منشئ رهبانيّة الفوليان الذي كان اوقعهُ اعداؤهُ في تهمة باطلة وبقي سبع سنوات معرَّضاً لسهامهم بازاء الكرسي الرسوليّ . ففحص بلرمينوس دعواهُ بكل حذاقة ونشاط واثبت شرعيًّا برارتهُ واعادهُ الى رهبانيّتهِ معزّزاً مكرَّماً

ومن مآثرهِ الجليلة دفاعهُ عن قضيّة النعمة الالهيّة والتوفيق بينها وبين الحرّيّة البشريّة وهي المسألة التي استفحل فيها الجدال بين الآباء الدومنيكان والرهبان اليسوعيين وكاد البابا اقليمس يحكم فيها للاوّلين فبيّن لهُ بلرمينوس الرأي الصواب واوقفهُ عن الحكم ولعلَّ البابا امتعض عن فعلهِ هذا نوعاً . ففضّل بلرمينوس خدمة الحقّ على رضاه

وفي السنة ١٦٠٢ احتاجت مدينة كابوا الى رئيس اساقفة يُعنى بشؤونها بعد وفاة راعيها فدعا البابا اقليمس بلرمينوس ورقّاهُ بيدهِ الى درجة الاسقفيّة . فمن وقتهِ خرج من رومية وسار كالراعي الصالح الى ابرشيّتهِ ليرعى شعبهُ على مثال الرُّسل الاوّلين .

والحق يقال أنهُ تجرَّد هناك لكل اعمال الخير والغيرة الرسوليَّة مدَّة ثلاث سنين بقي فيها فكان يزور ابرشيَّتهُ وكلّ رعاياها ويمنح سرّ التثبيت للاولاد وربَّما كان هو يسمي بتعليمهم مبادئ الدين وكان لا يدع احدًا او عيدًا الَّا يحظ فيهما الشعب وكان كثير الاهتمام بالآداب العموميَّة واستئصال العادات الذميمة وكان يهتمُّ خصوصاً بارباب الدين من كهنة او رهبان ليصلح ما يراهُ فيهم من النقص ويجمل حياتهم مطابقةً لشرف دعوتهم . وكان في كابوا كما في رومية يصرف كلّ اموال الكنيسة في اسعاف المعوزين والفقراء

وفي تلك الاثناء استأثر الله بنفس الحبر الاعظم اقليمس الثامن فسار بلرمينوس الى رومية ليشترك مع الكرادلة اخوتهِ في اختيار خلفٍ لهُ . فكانت اعين الجميع متَّجهة اليهِ وكثيرون يفكّرون في تقليدهِ تلك المهمَّة السامية امَّا بلرمينوس فصرف نظر الكرادلة عن نفسهِ وعدل بهم الى اختيار من كان يراهُ اهلًا لرئاسة الكنيسة جمعاء وذلك في الانتخابات الثلثة التي حضرها لمَّا قُلِّد البابويَّة لاون الحادي عشر القصير الايَّام (سنة ١٦٠٥) ثمّ بولس الخامس (١٦٠٥–١٦٢١) وغريغوريوس الخامس عشر (١٦٢١–١٦٢٣) وكانوا كلُّهم يجلُّونهُ ويعتبرونهُ كاشرف واقدس وأعلم رجال عصرهِ

ولمَّا صارت الخلافة الرسوليَّة الى البابا بولس الخامس امر بلرمينوس بان يبقى في رومية ليساعدهُ في تدبير الكنيسة . فتنزَّل حينئذٍ عن ابرشيَّتهِ لئلَّا تُصاب بأذًى في غيبتهِ فيقوم بشؤونها غيرهُ . فسكن منذ ذاك الحين رومية الى آخر عمرهِ اعني خمس عشرة سنة قضاها متفانياً في خدمة الكنيسة ومساعدة الحبر الرومانيّ

وقد لعب في تلك الحقبة ادوارًا مهمَّة لاسيما في الدفاع عن الكنيسة وتعاليمها فهو الذي أفحم بكتاباتهِ بعض البادقة الذين عصوا على الكرسيّ الرسولي مع زعيمهم پاولو سرپي . وهو الذي فنَّد ما كتبهُ ملك انكلترَّة جاك الاوَّل ضدَّ الكنيسة الرومانيَّة . وهو الذي بيَّن باجلى برهان حقوق الحبر الرومانيّ وعصمتهُ في تعليم الكنيسة ضدّ البدعة الجانسينيَّة والبدعة الغليكانيَّة فأعدَّ منذ ذاك ما حدَّدهُ بعدئذٍ المجمع الڤاتيكانيّ حتَّى دُعي بلاهوتيّ البابويَّة . وقد انتشرت تعاليمهُ هذه في كلّ الانحاء حتَّى انَّ اعداء الكنيسة ولاسيَّما في انكلترَّة كانوا يسمُّون الكاثوليك بلرمينيين او بابويّين

على انَّ قداسة بلرمينوس لم تكن دون علمهِ فانَّهُ مارس اسمى الفضائل بدرجة سامية كما اعلن بذلك المجمع المقدَّس في العام الماضي . وقد اراد الله ان يؤيد قداستهُ هذه بالكرامات حتَّى في حياتهِ فمن ذلك ما شهد بهِ كلّ اهل كابوا اذ احيا شجرة تين لاحد الفقراء المسمَّى سلفادور دي نيكندروس كانت احترقت وحُكم على حارقها بجزاء نقدي لكنَّ الكردينال امر صاحبها بان يذهب ويجني ثمارها واذ اكَّد لهُ هذا انَّها يبست ولم يبق منها لا ثمر ولا ورق كرَّر عليهِ الامر فذهب امتثالاً لامرهِ واذا بالشجرة مكتسية بالورق مثقلة بالثمر اللذيذ فقطف منهُ سلَّة قدَّمها للكردينال شكرًا لهُ فعُرفت منذ ذاك بتينة الكردينال القديس وقطع كثيرون من اغصانها فغرسوها كبركة في بساتينهم . ومثل ذلك الصيدُ العجيب الذي اجراهُ بامرهِ بعض فقراء الصيَّادين فتكرَّرت ببركتهِ معجزة الصيد التي رواها الانجيل عن السيد المسيح

وكان بلرمينوس بلغ السنة الثانين من عمرهِ وهو في تمام العافية الَّا انَّهُ بوحيٍ من الله عرف قرب زمان وفاتهِ وعيَّن سابقاً وقوعهُ في يوم عيد جروحات القديس فرنسيس شفيعهِ فطلب من الحبر الاعظم غريغوريوس الخامس عشر بان يعتزل عن الاشغال ويتعدّ لسفرهِ الاخير فاذن لهُ فاختار دار الرهبان اليسوعيين المبتدئين في رومية التي تُدعى بدار القديس اندراوس حيث كان توفي القديس استانسلاوس كوستكا وهناك استعدَّ للملاقاة ربّهِ بكل تؤدة وسكينة وكان مع ذلك يحضر الاجتماعات البابويَّة في اوقاتها . فلمَّا قرب عيد جروحات القديس فرنسيس شعر بانحطاط قواهُ واضطرّ الى ملازمة الفراش وكان يتكلَّم عن موتهِ بكل رغبة كأنَّهُ ذاهب الى مأدبة فاخرة . وكان سبقهُ الى الابديَّة ببضعة ايَّام يوحنَّا بركمانس السابق وصفهُ وكان عرفهُ جيدًا واثنى على فضيلتهِ وينشط نفسهُ بذكر وفاتهِ الصالحة ويتمنَّى ان يراهُ قريباً

ولمَّا علم الحبر الاعظم بدنوّ اجل بلرمينوس اراد ان يعودهُ بذاتهِ ليباركهُ فأتى اليهِ مع حاشيتهِ فاستعظم بلرمينوس تواضع الحبر الاعظم وصرخ عند دخولهِ : «سيدي لستُ مستحقًّا ان تدخل تحت سقفي» فوقع هذا الكلام في قلوب الحاضرين موقعاً عظيماً

ولمَّا كان صباح عيد جروحات القديس فرنسيس رقد بلرمينوس بالرب وذلك في

١٧ ايلول سنة ١٦٢١ بعد ان ضمّ الى صدره مرّة اخيرة صليب رهبانيّته ولفظ باسم يسوع المبارك

وقد جرى بشفاعة بلرمينوس بعد وفاته معجزات جديدة اثبتت قداسته منها زجاجة من دمه الذي لم يزل سيّالاً حتّى يومنا هذا في مدينة سلمنكا في اسبانية وغير ذلك ممّا يبعث الرجاء أننا سنراه في العاجل القريب محكّماً على هياكلنا بصفة طوباوي

وقد خلّف بلرمينوس للكنيسة مكتبةً واسعة من تآليفه التي تنيف على الخمسين عدًا. نذكر هنا بعضها ما عدا مجادلاته السابق ذكرها فمنها ألّفه كتاب شرح المزامير وكتاب تراجم الكتبة الكنائيسيين. وله غراماطيق اللغة العبرانية وكتاب صعود العقل الى الله من اجلّ الكتب الفلسفيّة وكتابان في واجبات الاساقفة وفي واجبات الامراء المسيحيين وكتاب في سلطة الحبر الاعظم الزمنيّة. وله في الادبيّات كتاب سجع الحمامة في شوق النفس الى دار البقاء وكتاب الاستعداد للميتة الصالحة وكتاب في سعادة القديسين في السماء مع مجموع واسع من المواعظ والخطب وتراجم بعض القديسين منها ترجمة القديسة مريم المجدليّة. ومن تآليفه التي نُقلت الى لغتنا العربيّة كتابهُ تفسير التعليم المسيحي المستفيض الشهرة عرّبهُ الخوري يوحنّا الحصروني من تلامذة مدرسة الموارنة في رومية سنة ١٦٢٧ وطبعهُ هناك ثمّ تكرّر طبعهُ في مطبعتنا من تعريب الاب بطرس فرومج وقد نُقل الى لغات عديدة. وكذلك شرح المزامير الذي عرّبهُ الاب ارتودي اليسوعيّ بمساعدة الشمّاس عبدالله زاخر وطُبع في المطبعة المخلّصيّة في بيروت بثلثة اجزاء قد استمدّهُ خصوصاً من شرح بلرمينوس وكتابهُ في سبعة اقوال المسيح على الصليب عرّبهُ المثلّث الرحمات السيّد غريغوريوس حجّار رئيس اساقفة صور وصيدا، وطبعهُ في بيروت سنة ١٩١١ وهو ايضاً الذي عرّب لهُ كتابهُ سُلّم السعادتين وطبعهُ سنة ١٩١٠. فهذه الآثار كلّها تنعش روح الايمان وتحيي شواعر التقى الى يومنا هذا في نفوس المسيحيين وتخلّد ذكر ذلك الرجل العظيم الذي لا يزال اسمهُ مباركاً في كنيسة الله. ولا عجب اذ شاء مواطنوهُ في ايطالية ان يحتفلوا هذه السنة بتذكار المئة الثالثة لوفاته متّعنا الله بشفاعته امين (١

١) قد مرّ لنا في تسطير هذه الترجمة على سيرة المكرّم الكردينال بلرمينوس التي كتبها في مجلّدين الاب كودر اليسوعي سنة ١٨٩٣
P. Coudere S. J: Le Vénérable Cardinal Bellarmin. 2 *vols in-4, Paris*, 1895.